



شبكة ليلاس

الثقافية

** معرفتي **

www.liilas.com/vb3

مختارات فصول

سفر

محمد المخزنجي

** معرفتي **

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

أتقدم بالشكر الجزيل لأخي العزيز

bader 44

الذي تكرم بتحويل
الصفحات الزوجية إلى فردية
وله مني وافر التحية والتقدير
والإمتنان

معرفتي

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٦٥)

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

يونيو ١٩٨٩

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

السَّامِرُ

فصل

محمد المخرنجي

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
تصدر عن
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

○ رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

○ رئيس التحرير

سامي خشبة

○ نائب رئيس التحرير

ابراهيم أصلان

○ مدير التحرير

نمر أديب

○ الاخراج الفني

راجيه حسين

الغلاف للفنان سعد عبد الوهاب

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

● أول هذا السفر ●

نافذة قرب الجناح

أشعر بفرح الانعتاق ، فرحا يفعمنى بالخفة ،
 بالطرب الدافع الى دندنة لحن حزين بسخرية مرحة :
 «لما انت ناوى تغيب على طول» . وخالعا حذائى والجورب
 أروح أستمتع بملامسة (الموكيت) لبساطنى قسدى
 العاريتين بينما أطل من النافذة قرب الجناح . . فى
 الطائرة قليلة الركاب كأنها خالية . . . أرض المطار فى
 أول المساء ، وعربة السلم تمضى لتنضم الى صفوف سلالم
 الطائرات المتراكمة فى الركن . . رجل أمن يتكلم فى
 جهاز لاسلكى بينما الطائرة تتحرك على المدرج مبتعدة .
 الآن أوقن فى انعتاقى . الآن سترتفع الطائرة . سأتححرر
 من هجوم الهموم الكبيرة والصغيرة المتواصل على انسان
 فقير فى العالم الثالث . سأكون فى مأمن من مصير
 السجن والاضطهاد المسلط على رقبتي بلا معنى ، كسيف
 قدرى ، لمجرد اننى اختلفت يوما ، أو اختلف ، أو
 ساختلف . وترتفع الطائرة فأشعر بنفسى خفيفا كعصفور

فى الفراغ النظيف المضىء المحمول على أجنحة الهواء ،
ويستبد بى طرب المعبة . . أغازل المضيفات الجميلات
بكلام يشبه الشعر ويلامس ايقاع الأغانى ثم أعود الى
النافذة ملقيا آخر نظرة على آخر نقطة من حدود وطنى
فى الليل : ركام من نقاط ضوء الشوارع فى تلك المدينة
الساحلية التى أعرفها جيدا وتعرفنى . . مجرة من نجوم
مرتعة الأضواء فى سديم الأرض المظلم . . نجوم
انسانية متواضعة ترتعش وهى تتضاءل مع الابتعاد ، ثم
. . فجأة يبتلعها الظلام ، فكأنما يبتلعنى . . كأننى
أنتزع من عمرى ، أو ينزع عنى عمرى ، ويلقى بى فى
ظلام لا نهائى سابح . . لأضيع . أخاف ، وأوارى وجهى
فى ليل زجاج النافذة المطلق . . لعله يستر انهيارى ،
لو أجهشت فى البكاء .

● مدخل ●

انسان الجليد

خمس عشرة درجة تحت الصفر ، وسماء الضحى تبدو
كسماء ما قبل الفجر : رمادية تومض بنور كسيف مزرق ،
والجليد الناصع يتراكم فوق الأسطح الجمالونية ،
تخترقه دكنة المداخن • الجليد • • هذا الذى يتساقط
الآن رذاذا ناعما ينداح بميل ، شفيفا لا يكاد يرى ، لكن
• • تكشفه رمادية الأشجار المنتصبة ، عارية أغصانها من
الأوراق ، والجدوع كأنما غرست فى بياض الجليد • •
تخرج داكنة من بياض الجليد • بياض ، بياض ،
بياض • بياض صقيعى ، كثيف وهش • • يغطى السقوف
– أفاريز النوافذ – الأغصان الخفيفة الأكثر سمكا فى
الأشجار – الأرصفة تحت هذه الاشجار – جنبات أسيجة
الأرصفة الشجرية – والنجيل الفافى فى أحواض زهور
هذه الأرصفة • كل شئ يشملله الأبيض حتى الطريق
الذى تسرع عليه الأقدام المدثرة ، للبشر المسرعين داخل
المعاطف الداكنة الثقيلة ، تحت أغطية رؤوس فرائية

كبيرة توشك أن تغيب كل الملامح ، فكان نسغا مكررة
من انسان واحد تدب بسرعة على جادة الجليد * وننعطف
نحو أحد الأبواب .. ندفعه وندخل ، فيسرع الى
احتضاننا الدفء .. نبتدى - كما فى كل مكان - بخلع
أغطية الرؤوس ، القفازات ، ملايح الرقاب ، المعاطف ،
ويكاد الانسان - فى كل مرة - يهتف : كيف انشقت هذه
الصالة الدافئة عن كل هؤلاء البشر المحمرى الخدود ،
الملونين ببهجة ، والمتباينى السمات ؟! .. يتحادثون
بحرارة فى قلب الدفء ، وأعثر بينهم - بعد تلفت قليل
- على صديقى .

**** معرفتي ****

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

درب الجليد

الليل هنا لا يكون أبدا حالك الظلمة ، كأن مصابيح
الشوارع القوية البيضاء تفيض بضوئها على الجليد ،
وكان الجليد يعكس استضاءته على وجه السماء ، فتبدو
فى عمق الليل كسماء الفجر .. نور خفيف ، أبيض
رمادى مزرق ، يكتنف الوجود ، ويوقظنى أنا من تعود
على النوم فى سواد عميق للظلمة • مؤرقا بلا تعب أظل
أرنو الى العالم من وراء النافذة • • يخطف بصرى بياض
الثلج المضى ، وتتوه عينائى فى ازدحام غصون الشجر
الداكن الذى عراه الشتاء • ويهبط الجليد دون
توقف ندفا تنسدل ستائرهما الشفيفة على كل
المنظر • • تتراكم على الأرض أكداسا من الجليد توشك
أن تطمر الأرصفة ، الطريق ، المماشى ، مداخل البنايات ،
وتكاد لو تركت حتى الصباح ألا تبقى موضعا لقدم •
لكن أقداما تبرز لها فى هذا النور الخفيف • • الملح هناك
فى الضفة الأخرى من الشارع شخصين مدثرين يمسان

بالجواريف • أتبين شيئاً فشيئاً أنهما فتى وفتاة ، أنيط
بهما العمل فى هذا الليل • • قبله خاطفة ، ويشرعان فى
جرف الجليد • قبله ، ويزيحان الجليد الى الأجناب •
قبله ، ويواصلان شق الطريق • وبأسرع مما يتصور
شخص مثلى ينجاب ركام هائل من الجليد ، وينشق
للأقدام مبكرة اليقظة طريق الى مساعيها فى الصباح •
طريق أمشى عبره فى النهار ، فتظل مرفرفة فى خاطرى
عصافير القبل •

سيد فى الجليد

يا عينى يا عينى ! حتى هنا أيضا • سادة وعبيد !
 سيد ، بل ملك ، يجلس على الزلاقة وقد تدثر جيدا •
 غير عابىء بهرولة المترجلين من حوله • غير عابىء
 بندق الجليد تتساقط سابعة من فوقه • غير عابىء بدرب
 الجليد الأبيض القارس من تحته • لم لا • • وهو قد
 تدثر جيدا • وحذاءه لا يلامسان حتى سطح الجليد ،
 فهو راكب ، وثمة من يشد الزلاقة • أعبد للجبر ؟ وسيد
 للركوب ؟ حتى هنا ؟ يا سيدى يا سيدى ! يقلب وجهه
 المطمئن فى أركان العالم من حوله ، ويلفت نظره شىء ما
 • • يريد • • ويرفع يده مشيرا بالتوقف ، وينادى من
 يجر : « ماما ، ماما » ، فتسرع عند قدميه • آه ما أحلى
 العبد ، وما أجمل سيده ، وما أكثر ما يهفو قلب الأعزب
 الغريب الى دفء هذه العبودية ، فى مثل هذا الجليد •

شمس على جليد

تسطع الحجرة فجأة ويأتلق زجاج النافذة ، فاقفز
من فراشى قفزة فرح غامر ، وأقف وراء النافذة ملوحاً
أهتف : « ايه يا شمس • ازى مصر • كيف حال الحبايب »
وأمن فى حضورها الباهر فى الأعلى ، هى الشمس • •
تطل من كثافة الغيم الرمادى ، فتشتد نصاعة الجليد فوق
الأسطح ، وعلى فروع الشجر العارى ، وعلى الارصفة ،
والطريق • ويتحول الجليد الى ثلج متجانس فوق افريز
النافذة بقرب عينى • هى الشمس التى لم أرها منذ أيام
بعيدة ، وكأنها الآن تأتى من هناك ، من وطنى الذى
تكاد لا تغيب عنه الشمس • أسألها عن أمى ، وأبى ،
واخوتى ، وأصحابى ، وأهلى ، ونورا • • نورا ،
وكتبى ، والشوارع ، والناس ، والبيوت ، ولا أعرف
لماذا تؤثر ألا تجيب ؟! • • تتوارى سريعاً فى الغيم ،
وينكسف السطوع ، تكبوروحى ومع ذلك أرانى فى
مكث طويل وراء زجاج النافذة الذى لم يعد فى اتئلاق •
لم تعد تنيره الشمس التى هزمتها - بعد دقائق عشر -

سمااء الفيوم وأرض الجليد • ومع ذلك ، لم ينقطع
الدفع داخل حجرات كل البيوت : عشرون درجة من
الدفع المتواصل ، وهناك ؟! حيث تكاد الشمس لا تفيب
والجليد لا يكون ، ما الذى يجعلنا عرضة لارتعاد لا
ينقطع ؟ لا ينقطع ! أتذكر سقف بيتنا الذى يبدأ فى
التساقط والرشح المذل مع حلول الشتاء • أتذكر وهن
أبى ومشيته المرتجفة فوق البلاط البارد • أتذكر حيلة
أمى الكسيرة وهى تستعين بلفائف خرق الملابس القديمة
تحميها من شر الشتاء • أتذكر يدى نورا الصغيرة
الجميلة وأقدامها المزرقعة ابتزادا فى الشتاء ، أتذكر
صقيع زنانات سجن تجربة المرج ومعتقل القلعة وتأديب
القناطر ، واستعيد فى عمق عظامى برد الشوارع
والبيوت • تطيش فى أفق ذاكرتى صورة لسرب طائرات
خاصة تزف ابنة بليونير من الثغر الى القاهرة • وأوقن
أننا فى حاجة الى أكثر من مجرد شمس فى الأعلى •

عصافير الجليد —

★ تنخطف روحى بالجلال اذ ألمعه خارج زجاج المدخل ، يحط على الجليد ، ويتلفت ، ويتواثب ، وينفض جناحيه قبل أن يطير • يطير فى سماوات السبع عشرة درجة تحت الصفر • يطير وينخطف انبهار روحى بهذا الكائن الصغير الذى يرف بدفء الحياة رغم برد الجليد الساحق •

★ يعود يحط فى ساحة روحى • • يتلفت ويتواثب ، ويرفرف ، ويطير • • هذا ، اذ أبصر علبة شيكولاته فارغة — بشكل بيت برتقالى صغير — علقها طفل ، أو علقها له والداه ، فى غصن شجرة قرب نافذة ، لتكون عشا تأوى اليه العصافير ! لقد غطى الثلج العش ، والنسمة الباردة تؤرجعه مهجورا • ينطلق العصفور سهما عنيدا فى الأفاق الباردة ، وعبر تقدير روحى ، ويسكن قلبى هذا الطفل الذى لا بد أنه الآن يراقب من

وراء النافذة - مكسور الخاطر - بيت حنانه المهجور ..
تؤرجحه الريح .

★ أسمى الحمام : « عصافير كبيرة » تكريما
لذكره ، وأنا أبصر الحمام وهي تحلق أسرابا فوق
ضفاف نهر « مسكوبا » ، وتستريح على أغصان الشجر
العاري ، ثم تنطلق بعيدا ، وتهبط .. تحط على ساحة
غائرة في الأرض يكسوها الجليد ، وتلقت .. أعرف أن
هذه بحيرة « نوفو ديفتشي » التي تجمدت وغطى الجليد
ضفافها . أعجب : ماذا يلتقط الحمام من الجليد ؟!
لكن عجبى ينزاح بروع مفاجيء ، ويخفق قلبي رعبا
على أطفال أبصرهم يلهون على منحدرات الجليد ..
يتركون أجسامهم المدثرة الصغيرة تنزلق في صخب ، من
الأعلى وحتى سطح البحيرة . أليس يخيفهم انكسار غطاء
الجليد ؟!

★ لا أدري لماذا يتراجع في بانورامة روحى ذلك
العصفور ، وتتقدم بثبات فكرة غريبة : أن هؤلاء الأطفال
الصاخبين فرحا بالجليد ، يحققون - بهذا اللعب -
خرافة مقدسة .. أليسوا يمشون على سطح الماء ؟!
الماء المتجمد .. الجليد ، الأبيض ، الذي أبصره في

الآفاق يطمح الى تغطية الدنيا جميعا ، لولا تظل تخترقه
هنا وهناك : أشجار زرعها الناس ، وأبراج شادها
الناس ، وقلاع ذهب قبابها الناس ، وعمائر . . تسمق
راسخة في الأعلى، وتحط عند أطراف مداخلها الزجاجية
تلك العصافير .

● ترددات ●

الغابة

ربما بدأت انتبه لما يحيط بى فى اللحظة التى شعرت
 فيها بالدفع بعد الصقيع . رأيت نفسى فى الغابة
 محاصرا بخليط متنافر من حيوانها . دبة ، وثعالب ،
 ونمور ، وأرانب وتندرا ، ولاما ، وسناجب ، وغزلان ،
 وأبقار ، ونموس . وشعرت بالاستغراب الذى يحل
 بنظرة الانسان عندما يمعن فيما حوله من قريب بينما
 أتأمل ثفور الشعر الدقيق فى بعض الفراء ورقاده فى
 بعضه الآخر . وتخيلت مذبة الرصاص المنطلق والدم
 المسفوح والنفخ والسلخ .

طفأ على تيار ذهنى قول توينبى عن رد الفعل
 للمناخ ، وربط الرازى بين البرد واستنهاض الهمم
 البشرية . لكننى لم استطع التخلص من احساسى بالعار
 الانسانى لهذه المذابح التى تنتهى الى أغطية رؤوس
 وياقات فراء وقفازات ومعاطف . واندفعت جانبا لألقى
 ببصرى عبر زجاج النوافذ الى الخارج ، بعيدا عن هذه

الغابة التي تغطي أجساد ورؤوس وأيادي الرجال والنساء
من حولي في الترام . ولم يكن ممكنا أن أرى أى شيء
خارج النوافذ .

كان بخار الانفاس المتكاثفة على الزجاج قد تجمد
وصار طبقة من الجليد الحاجب للرؤية . وبدأت أحس
بتسلل البرد من جديد وأنا أحاول خمش طبقة الجليد
على الزجاج لعلى أفتح فيها ثغرة الى الخارج ، لكنها
كانت شديدة الصلابة تؤلم أظافرى فأحجم عن
الاستمرار . ويفاجئنى بأسرع مما أتوقع الوصول الى
محطتى عندما ينفتح أمامى الباب . . يندفع الى ساحة
بصرى بياض ركام الثلوج فى الشوارع . . يندفع نحوى
صقيع الثمانية وعشرين درجة تحت الصفر ، وتندفع
يدى بالغريزة لتتأكد من وجود هذه الطاقة على رأسى ،
فتفوص أصابعى مرتاحة فى فراء الأرنب الجبلى الذى
صنعت منه .

الآخر

أخيرا انفجرت في وجهه : « أنت لست انسانا يا « أليكس » • أنت خنزير • خنزير خنزير خنزير » • ولم يكن النعت وليد لحظة الغضب ولا ابن اندفاعتها ، فقد كان تعبيرا تشكل عبر أيام طويلة من معاناة تصرفاته الخنزيرية كلها • • ابتداء من اعلاء صوت مسجله كأنه في صالة « ديسكو » حتى بعد منتصف الليل ، ومرورا باغترافه من أكلى دون استئذان وتركه الأطباق وسخة مع ذلك ، وأخيرا طريقته الفظه في طرق باب « التواليت » لكما بقبضتيه وركلا بقدميه وجئرا بكلمات استعجال مقززة •

خنزير ، صرخت بها في وجهه فارتج بدنه المنفوخ لحظة ثم جرى الى المطبخ يحضر سكيننا يقتلني به ، وجرى الى المنور أحضر عصا التنظيف لأحطم بها دماغه • ولحظة خرج كل منا للآخر ، كان « فيكتور » جارنا الرقيق المسالم ساكن الغرفة الثالثة في الشقة يحول بيننا •

وأعترف أنني انسقت الى المجاملة ، استجابة
لإلحاح الجار الثالث بالغ التهذيب فى التقريب بيننا
بعدها أصر على جمعنا حول الشاى فى غرفته .. قلت
له : « يا فيكتور .. اننى أعرف أن أليكس انسان طيب
ويعرف الأصول ، لكنه عندما يشرب يصير شخصا آخر » ،
بينما كنت أشك أن « أليكس » فى سكره وصحوه لم يكن
غير خنزير .

ولم يدهشنى بالطبع أن ينهض أليكس ويصافحنى
بحرارة اذ قدرت أنها عاطفية اللحظة المؤقتة التى وضعنا
فيها فيكتور . لكن الذى أدهشنى - بعدها - أن أرى
أليكس وكأنه شخص آخر : يتعامل معى ، ومع الناس
جميعا ، برقة بالغة وتهذيب ومودة .. وينحرف فى أثناء
ذلك .. ينحرف بشكل مخيف ، حتى أيقن الجميع أنه
سيموت .

حين مالت

حين مالت على وفاجأتني بقبلة على فمى ، فى
الشارع ، ارتبكت بشدة • وصعدت الى الأتوبيس وأنا
أتخيل أن كل الركاب ينظرون الى • لكنهم لم يكونوا
ينظرون •

وقررت أن أخصص الغد لقبل الشوارع ، الأوربية،
المباحة هذه •

وكأننى أتهياً لأجراء تجربة علمية مثيرة ، أوقفتها
عند محطة أتوبيس الأمس • واستحضرت ما يقارب
خمس عشرة سنة من أحاسيس القبل الشرقية ، القبل
السرية • وفى مواجهتها ، بالضبط ، ملت بفمى نحو
فمها • •

أحسست بطعم الشفاة الناعمة على شفتى ، نعم ،
لكن الأكثر أننى أحسست فى أثناء ذلك بابتراء ، وكأن
مؤخرتى عارية •

موقف الحديقة

كدت أوقن فى مقولة الجمال الخالص لهذه الغابة
 الشمالية التى أعلن عن تمام تطهيرها حتى صارت
 حديقة • وتحمست حتى أوشكت على الهتاف • لكننى
 ما كدت أشتف حتى دهمتني رؤية الخنزير البرى وهو
 ينطلق قادما من بين تلة الخمائل على يمينى ويندفع فى
 سهل النجيل وزهور الهندباء الذى وقفت فيه • ثم اختفى
 كبرق أسود فى دغل أشجار التفاح والكرز على يسارى •
 خنزير برى • لا أشك فى ذلك أبدا ، فقد رأيت
 أنيابه الطويلة البارزة ، وسمعت صوت نغيره الوحشى •
 وأوقعتنى - دون ملامسة - اندفاعته الغبية كعاصفة
 عمياء • • دانة من اللحم البليد ، لو اصطدمت بى
 لاخرقتنى • لكننى وقعت بعيدا ربما بفعل ضغط الهواء
 الذى اكتسحته الاندفاع ، وربما بتأثير التخلخل الذى
 حل بساقى من أثر الرعب والمفاجأة • ثم اننى فى
 نهوضى ، مذهولا ، على أربع • • لمحت انحناء أعواد
 الزهور والعشب الذى وطأته حوافره • وشرعت أجرى

نحو مبنى ادارة الحديقة البعيد الغارق بين كثافة الأشجار
والخمائل .

مشوشا لاهثا من أثر الركض والارتعاب وقفت
أقص على أحد مسئولى الحديقة ما رأيته . وبدلا من
تصديق حكايتي ، أو حتى احتمالها ، رأيت عينيه
تتشككان فى ، ولمجرد أننى غريب . لهذا كان اصرارى
على شدة للقيام معى والذهاب الى حيث عصف البرق
البيد الأسود ودهس العشب والأزهار . وكان احباطى
لا مزيد عليه اذ تكفلت عصارات الحياة ومرونة الغضاضة
الخضراء فى الأعواد باستعادة انتصابها ومحو كل
ما رأيته من انثناء وانحناء . فأطرقت أمامه .

أطرقت ثانية أو ثانيتين بعدهما لفنى دوار سريع
وغبت عن الوعي ، لكننى أتذكر بجلاء آخر صورة
التقطتها عيناي المفزوعتان قبل غيابي : . . . كنت أنظر
فى اطراقى الى أسفل ، وأمعنت فجأة ، فصعقتنى رؤية
الحافرين يخرجان من أسفل بنطال مرافقى
ويوشكان على الاختفاء فى غزارة العشب .

● زوايا للرؤية ●

———— على الخط الأبيض ————

فى درجة ٣٠ تحت الصفر كان طبيعيا أن نخالف اشارات المرور التى ينظمها مركزيا عقل الكترونى بعيد . لم ننتظر النور الأخضر ، بل حتى لم نعد الى عبور الشارع الفسيح من نقطة عبور المشاه . واندفعنا من رصيف الثلوج الى الاسفلت راكضين ، لكننا على خط المنتصف ، الأبيض ، حوصرنا .

لم يكن خطأ واحدا فى حقيقة الأمر هذا الذى يقسم الشارع الى اتجاهين لمرور السيارات ، بل خطين متوازيين يفصل بينهما شريط ضنين وسع بالكاد مواطىء أقدامنا ، وقد وقفنا متجاورين نتضاغط بجنوبنا لحد الالتحام ، ونهتز كستارة من الارتعاب المتماوج . . مرة الى الورا من فزع اقتراب المركبات المارقة أمامنا ، ومرة الى الأمام من رعب اقتراب صوت المركبات خلف ظهورنا . ولم يكن بيننا وبين احتمال الموت غير سنتيمترات قليلة ، ولحظة خاطفة .

لحظة خاطفة ، من العجيب أننا حددناها معا ، ككائن
واحد صاح صيحة واحدة : « اجر » ، فركضنا حتى
رصيف الثلوج الآخر ، ثم وقفنا نترامق مستغربين
مرتين : مرة لأننا نجونا ، ومرة لأن كلا منا كان يتساءل
- لا بد - فى داخله : أين ذهبت رائحة الكارى التى
نتناقل فى حلقات الأجانب المنعزلة أن الهنود ينضحون
بها ؟ ورائحة عرق الزنوج الشهيرة فى الثرثرات ؟
ورائحة السمك المتعفن الذى يشاع أنه طعام للفيتناميين ؟
ورائحة الفودكا والبصل التى صدقنا أنها تفوح من فم كل
روسى ؟ .. فقد كنا على الخط الأبيض خمسة ، ولم يكن
هناك غير تضاعطنا ، ورائحة الصقيع .

لغة .. جديدة —————

- ١ -

لم أكن أتصور أن شدة فرحى يمكن أن تقودنى الى هلاك . فاليوم جننت فى الغابة التى تطمرها الثلوج . جننت فرحا اذ أيقنت أننى الآن ، وبعد شهور طويلة من الاستحالة ، أستطيع أن أتكلم باللغة الجديدة . وجدت نفسى هذا الصباح ، وعلى غير انتظار ، أتدفق . . . أتكلم بطلاقة مع جارى فى المسكن ، ومع المرأة فى كشك التذاكر ، والراكب الى جوارى فى الباص . وبين جذوع الأشجار العارية ، وفوق ركام الثلوج التى لا بد أنها تساقطت بغزارة فى الليل ، وجدت نفسى أعبر بسلاسة عن كل فكرة تمن لى ، فجننت من شدة الفرحة .

تراكضت خفيفا دون أن أحس باعاقة ركام الثلوج لقدمى . وقفزت عاليا . ودرت حول نفسى . وهمتفت بكل الكلام الحلو الذى خططت أن أقولـه للبنت التى تعجبني وأحس أننى أيضا أعجبها . قلت لها كثيرا . . .

وقلت : أنت حلوة أحلى من المسلى • وقلت : قوامك
 سعر خالص • وقلت : أمتلك العالم يا وردة لو أمتلكك •
 ثم خرست مرعوبا لاكتشافى المفاجيء أننى وضعت فى
 غابة تغطيها الثلوج ••

جذوع شجر سوداء وثلج أبيض •• جذوع جذوع
 جذوع وثلج ثلج ثلج • ولا أثر للدرب المعبدة التى
 كنت أقطعها الى هدفى عبر الغابة •• طمرتها الثلوج
 الغزيرة التى لا بد أنها تساقطت فى الليل • ركام من
 الثلوج قد يكون مخفيا تحته بركة مياه عميقة ، أو بئرا ،
 أو حفرة مملوءة بهشاشة الثلج أو ورق الخريف أو مالا
 أعرف • فدرت أنظر فى كل الاتجاهات • وما من دليل
 غير آثار قدمى التى أوغلت طويلا فى غابة الثلوج •
 عليها يمكننى أن أعود سالما الى حيث بدأت • وأدور فى
 الطريق الطويلة حول الغابة •

- ٢ -

وكنت أتصور أن الحصول على صاك أكيد بقاء
 غزالة فى مثل جمال من حادثتها للمرة الأولى وحادثتى
 يمكن أن يجعلنى حريصا على عمرى • لكننى فوجئت
 بنفسى مندفعاً فى الغابة من جديد • ومن طرفها الآخر

هذه المرة • كأنما بغريزة الميل الى المغامرة حين الفرح •
أو حب ملاعبة الخوف حين الانتصار • أو لعله عدم
احتمال هذا القدر من المسرة •

وجدت نفسى موغلا فى الثلج • ثلج خالص لا يشوبه
أثر أو دليل • • دليل على درب مأمونة أو فخ للموت •
أخطو ثم أتوقف • ويستفزنى تجانس الثلج فأخذه
ببضع خطوات ثم أتوقف • أخاف وأجازف وأخطو ثم
أتوقف • وأجد نفسى فجأة فى اندفاع طليق • •

- ٣ -

جريت نشوان نشوة كل المكتشفين القدامى والمحدثين
والذين لم يأتوا بعد • أصبح عاليا بكل الكلام الحلو
الذى عرفته فى اللغة الجديدة وأنا أجرى • غير هيباب
أجرى • • فقد كانت قدماى تخطوان على آخر أثر طبيعته
أقدامى على الثلوج فى الصباح • صارت الدرب مكتملة •
شقت طريقا فى الغابة •

العارض

لا عرف ما الذى لفتنى بشدة الى حماقة الولد الخاصة
وسط صخب الأولاد فى حديقة الثلج .. كان يدحرج
قطعة متجلدة من الثلوج انتزعها من مكانها قرب السور
السلكى .. يدحرجها قليلا ثم يحملها بين يديه ويربت
عليها ويدورها ويسويها ثم يعود يدحرجها من جديد ..
بينما كان الاولاد يسوون أشياءهم من الثلوج وقد
توزعوا بين جذوع الأشجار العارية .. من يسوى دمية
تستند على جذع ، ومن يسوى دبا برأس وأذرع كلها
مدورة ، ومن يسوى حملا نائما على جنبه ، وأرانب ،
وجراء بأذان منتصبه ، وأخرى مدلاة .. كلها من
الثلوج .

كان الاولاد فى حديقة الثلج هذه متدثرين جيدا
مثل دبة لطيفة .. تتأرجح قفازاتهم المخلوعة
المربوطة بالأكمام وهم يعملون بهمة وصخب
.. وتتطاير أصواتهم الصغيرة العذبة بين الأشجار ..

بينما كان الولد وحده منزويا ويعمل فى صمت .
 كان لا يزال ينحنى ويدحرج ، ويستوى ليسوى ،
 ويعود ينحنى ليدحرج ، فسئمت التطلع اليه ورحلت
 ببصرى الى لمة الاولاد أتأمل كائناتهم الصغيرة التى
 صنعوا ، لكننى مثل من ينجذب بقوة غامضة ، ألتفت
 بعد وقت قليل فاندشت للكرة الهائلة من الثلوج راح
 يدحرجها الولد أمامه ، وهى أعلى كثيرا من قامته . من
 أين أتت هذه الكرة ؟ ومتى أتى بها ؟

وأعثر على الاجابة تتجلى أمامى اذ صارت الكرة
 تتنامى فى هذه المرحلة باطراد كأنها توشك أن تتضاعف
 حجما مع كل دحرجة . ويستعصى على الولد دفعها بينما
 الأولاد الذين تركوا كائناتهم الصغيرة وقفوا يتطلعون
 اليه فى انبهار .

استقرت الكرة هائلة عند المدخل ، وتعاونوا لعمل
 رأس بقبعة لهذا الجسم المتكور الضخم ، وأحضروا له
 عصا من فرع يابس ، وأخذوا يتصايحون مطلقين عليه
 لقب « حارس الحديقة » . حارس الثلوج الذى تابعته
 يتكون على مهل ، على مهل ، ثم انه أطلال المكث أمامى
 ولم يندثر سريعا كغيره من كائنات الثلوج .

تصوير أشجار الحديقة —————

كان يقترب ويبتعد • يضيق عينيه ويفتحهما وهو
يقترب ويبتعد • يمعن فى أشجار الحديقة من حوله ثم
يعود ليضيف الى لوحته بفرشاته لمسة • نظرة ثم لمسة •
نظرة ولمسة • فاقتربت منه لأرى الى أى حد نجح فى
تصوير أشجار الحديقة ؟

لم يكن فى اللوحة أية أشجار ! ولا غصن واحد !
فقط : بضع حوريات عريانات يصعدن محلولات الشعر
فى سماء ليل ترتعش فيه النجوم !!

« مجنون » أو « مدع » - قلت لنفسي ذلك ،
واستدرت منصرفا عنه • لكننى ما كدت أخطو خطوتين
حتى أقفلت راجعا اليه ..

لقد كانت فى أدائه براعة لا شك فيها • ثم ان
الاشجار من حوله كانت كلها من نوع « شجرة ايفا » ،
وتتكسر بين أغصانها المسدلة أشعة شمس الضحى ..
تتكسر بارتعاش •

بقايا النار

فضلت أن أظل هاجعا في الظلال بين الأشجار بينما
اختاروا هم النزول الى البحيرة . لهذا آل أمر تنظيف
الأواني الى وقبلت ذلك كجزء من شعور عام بالتعاسة
يجتاحنى ، وأجده يجتاحنى فى مواجهة أى جمال
يصادفنى فى اغترابى أو فرح . وقد كان هناك الجمال
الخرافى للبحيرة المحاطة بفابات الصنوبر والتي تنطلق
منها وتهبط اليها ، على فترات ، أسراب البط البرى
معدثة صوت رشاش كبير مفرح (لم يكن يزيدنى
الا تعاسة) .

كانت الجمرات التى شويها على لهبها لحم الضأن
المتبل فى الأسياخ ، وسوينا الحساء ، لا تزال ملتهبة
(وان بدت خامدة) . وكان على أن أطفئها ثم أهبط
الى حافة الماء لأغسل الآنية المسودة والأسياخ المسودة
التي تلتصق بها البقايا المحروقة من اللحم . ولما كنت
أحسن بالتعاسة تطبق على عنقى مزيدا بعيد نزولهم الى

الماء وتركى وحيدا ، فأننى ألقيت ، فى ذروة شعور
باللاجدوى ، بالآنية والأسياخ جميعا فى بقايا النار الى
جوارى . واستلقت هامدا على العشب .

كان كل شئ يبتعث أحزاني الجنوبية ، وأحس
بيأس من أن أنفض تعاسات حياتي المتراكمة لعلى
أتلامس مع ما يتاح لى من جمال العالم الشمالى وأفراحه
.. خيام المستجمين المرحين الملونة بين جذوع الصنوبر
الحمراء السامقة العطرة ، والبحيرة الهادئة التى يكلل
أطرافها البعيدة ضباب بنفسجى شفيف وترصعها أجسام
المستحمين المرحين الوردية .. أسراب البط البرى
المرفرف ، وصدح كروانات الغابة التى لا تبين ،
والفراشات سحرية الألوان ، كل هذا ما كان يوقظ
داخلى غير احساس بأن الأمر قد انتهى وأن الروح قد
تفضنت بفعل تراكم الآلام المزمنة التى كانت ، ومضى
الوقت الملائم لتجديدها . ولم يخرجنى من تمادى أفكارى
هذه غير رائحة شواط زاكم الى جوارى .

هى لى أن الأواني والأسياخ يحترق معدنها اذ
كانت محمرة الأطراف واسودادها يدخن برائحة شواط
الزيوت والدهون المحروقة . فترة ، وتكاثف الدخان
شديدا ثم انقطع ، فيما كانت الآنية والأسياخ تتلون

بينية معتمة فى أثر الاسوداد صارت الى رمادية باهتة
أخذت تبيض ، تبيض ، حتى خلصت الى لون معدنها
البكر . فكأنها لم تستخدم قط ، لم تستخدم بعد .

ووجدتنى أهب واقفا واضعا يدي حول فمى كالبوب
.. أصرخ بحماس منعش مناديا أصعابى حتى يخرجوا
من الماء ويأتوا سراعا .. سراعا يأتون .

وسط المنضدة

وضعتة كيفما أمكن ، وسط المنضدة ، فلم
يلفت نظري الذى انشد الى اتجاه آخر .. الى مفرش
النايلون المزخرف الذى يكسو قرص المنضدة ، كان وسخا
بشكل مخجل .. قطرات الشاي والعصائر المدلوقة في
أوقات بعيدة تخرت لامة في داخلها الغبار والتراب ..
صارت بقعا قدرة تغطى زخارف المفروش المنمنمة فاتحة
الألوان ..

ساحة لفوضى الكسل المزرى .. علبة السكر الى جوار
الملاحة لصق الفناجين المتيبسة فيها آثار القهوة و ثفل
الشاي .. شرائط كاسيت مغيرة خارج أغلفتها .. أقلام
ودبابيس وكسرات خبز وعلب كبريت وقصاصات
مكتوبة مبعثرة .. حتى أعواد تنظيف الأذن كانت تتناثر
في هذا الزحام صفراء ، قدرة ..

أى كائن صرت ؟ والأرض تحت المنضدة .. التراب
.. التراب .. والغبار من فرط تكاثفه وطول مدة التكاثف

تجمع فى كريات من الزغب القذر حول أرجل المنضدة .
 وأسفل الجدار . . حول أقدام الكراسى . . الكراسى
 المطمورة بالمناشف التى لم تغسل والملابس الداخلية
 القديمة والجوارب والمناديل وقشر البرتقال اليا بس
 الملتوى . أى جب . أى جب هذا ؟!

وكشحت بعذائى أسفل الحائط فكانت كريات الغبار
 خفيفة . تافهة الازاحة . أكثر . أكثر . وأسرع إلى
 الحمام لأحضر المقشة والجاروف . . هنا وهنا وهنا .
 ثوان قليلة لكننى ألهث . وهذه المنضدة . ليكن كل شئ
 فى مكانه . . كل شئ فى مكانه . والمقاعد . كل شئ
 فى مكانه . والآن ، لأفتح النافذة والباب . . ليحمل
 تيار الهواء كل هذا الغبار المثار الذى استيقظ بعد دهر
 من رقاده .

ما أصفى نسمة الهواء صارت . وما أكثر ما تجلت
 مضيئة خضرة أوراق البيجونيا العريضة وهى تحيط
 بباقة زهيراتها البنفسجية الحمراء ، فى الأصيص ذى
 الغلاف المفضض الذى وضعته وسط المنضدة .

———— في البعيد ————

مكثت منكفئًا على السطور ساعات كثيرة ، ساعات طويلة حتى أن الكلمات راحت تتماوج والأحرف تتداخل ، وأفقد شيئًا فشيئًا الاتصال مع معنى النص ، وكأنه كتب بلا معنى . . بلا أى معنى . وكان هو جالسًا خلف مكتبه ، أمامي ، يرتشف كوب الشاي على مهل ويراقبني . ثم انه ابتسم ، ابتسامة ذات مغزى ، وهو يدعوني الى النهوض بسرعة والاطلال على شيء ما ، في البعيد ، عبر النافذة .

نهضت ورحت أرنو من النافذة عبر شفافية الزجاج الى الخارج ، ولم أجد ما يلفت النظر . . نفس التلال الخضراء البعيدة ، وذرى الأشجار المتلامسة مع الأفق ، ولا شيء جديد فى المنظر . اللهم الا سحابة بيضاء خفيفة تسبح فى البعيد الأزرق . . تسبح على مهل . ولا شيء جديد .

لا شيء جديد — قلت له ذلك وأنا أستدير عن

النافذة ، لكنه ظل يبتسم محتسباً شاياً على مهل ، مهل
شديد ، مما أغاظني . فنفضت مقعدى بعنف قبيل
جلوسى ، وبعنف شددت الكتاب تحوى .

فوجئت بالكلمات واضحة أوضح ما يكون ،
والحروف ثابتة جلية ، وعاد المعنى يتصل بى .
وأصل به .

_____ الجزء ، والكل _____

جنرال فى ملابس رسمية • • ومجنون ؟! تساءلت
فى نفسى عجباً عندما التقيت به صدفة فى شارع الضاحية
الهادئة الكبير • كان مقبلاً وأنا أمضى ، ولم يكن منتبهاً
إلى اذ تحاذينا على الرصف ، ورأيتة يلعب ملامحه
بشكل بهلوانى ويفتح ذراعيه ليحتضن الهواء • ثم انه
راح يمشى مقرفصاً مقلداً مشية البطة حتى صار وراء
ظهري • وأمسكت عن الالتفات فوراً ، حذراً حاجته •

بعد خطوات كثيرة عمدت إلى الالتفات عندما
أحسست أننى فى مأمن ، ورأيتة فى الورا • • هناك •
كان مقرفصاً أكثر وفاتحاً ذراعيه على اتساعهما ليضم
طفلاً صغيراً يجرى إليه فى تهلل • • يتدحرج فى خطو
الصفار الجميل الصعب • لا بد أنه كان حفيده •
وشعرت أنا بالتأثر ، والخجل •

— فى نهاية الغابة —

فى نهاية الغابة ركنت دراجتى على أحد جذوع
أشجار البتولا السامقة وانتصبت فاتحا ذراعى أتنفس
ملء الرئتين من الهواء الشفيف الطازج وأدور حول
نفسى • لكننى ما كدت أتم الدورة حتى جمدت فى مكانى
مشدوها • كتمت أنفاسى ورحت أركع على ركبتى بطيئا
بطيئا • أتعاشى حتى الحفيف مع العشب وأنا أتطلع
مبهورا الى المنظر الخرافى الذى لم أتخيل وجوده فى هذا
المكان ، على الحدود بين شرق أوروبا وغربها • • سرب
نساء صغيرات عاريات تماما ، ورديات تماما ، يتراكن
على الخضرة عند حافة بحيرة دائرية مقفلة لامعة
الصفحة ، أمام قوس من البيوت الخشبية البيضاء • ولم
يكن اتجاه الهواء يحمل الى سمعى أى صوت • كأننى فى
حلم • ورحت أتذكر وأعى عبر انشداهى تلك اللافتات
التحذيرية التى صادفتنى وأنا أتسلل بالدراجة عبر
دروب الغابة : « يحظر الدخول • منطقة استشفاء

خاصة . وبالفعل أحسست وأنا خارج المشهد كأننى
أغتسل فى ماء صاف وعذب . كأننى مولود يتطلع بانبهار
وشغف باتجاه ضوء نافذة صباحى . ولازم خاطرى ذلك
الحلم الذى كنت أراه كثيرا فى طفولتى الباكرة .
ملءات حريرية بيضاء يملؤها الهواء كأشعة أفقية .
تسبح طائرة وأنا أتقلب بانعدام وزن عليها . ولم يكن
هناك أى احساس بجسمى وقد رقدت فى العشب رافعا
وجهى الى هذا الحلم الغريب أمامى . . سهل أخضر وبيوت
بيضاء أليفة وبحيرة هادئة وسرب من العاريات الورديات
يتراكضن بلا صوت . كن ورديات ربما بفعل حمية
التراكض . ورديات وكأنهن صور فى لوحة . لولا
الحركة لقلت انهن صور فى لوحة . . لوحة لفنان مرهف
الحس شغوف لحد التسامى بهذا اللون الوردى . لقد
كن ورديات تماما تماما . ثم اخترقت سمعى صفارة .
وحمل الهواء الذى بدا كأنه استدار كلية نحوى فى لحظة
خاطفة صوت صرخات نسائية محذرة ، وتصارخ سرب من
النساء المرتاعات . رأيت شرطيات فى زى مختلط يخرجن
من وراء البيوت ملوحات فى الاتجاه الذى كنت أكمُن
فيه ، وكن يحملن مناظير مزدوجة وينفخن فى
الصفارات . ورأيت الاضطراب يبدد سرب النساء
الصغيرات العريانات وهن يلذن بلفرار فى

اتجاه البيوت البيضاء الصغيرة • فاختطفت دراجتى
وطرت أهرب • أفر بجنون عبر دروب الفأبة ،
ومن بين جذوع الاشجار • أفر مما
تصورت أنه السجن فى أوربا لو قبضوا على • أسابق
الريح التى تثيرها عجلات الدراجة المسرعة ••
أسابق الطيور التى تفزع من أوكارها بين الأغصان ••
أسابق فزع الفراشات المضطربة • وفى أول نقطة من
نقاط الأمان أرتمى متنفسا الصعداء تاركا
الدراجة تندفع ثم تصطدم بجذع شجرة وتهوى • وألهث
منطرحا على ظهرى فوق العشب •• أغمض عيني
وأتنفس عميقا مستعيدا منظر الشرطيات المسكيات
بالصفارات والمناظير وهن يلوحن باتجاهى • أدرك أننى
نجوت من مأزق ما •• لعله السجن • السجن ؟ اتخيله فى
الغربة • وأدور منقلبا على بطنى اذ يدهمنى احساس
بجيشان مفاجيء ، حارق يتجه متركزا فى نقطة واحدة،
فكان خصرى سيشتعل •

الذئب —

غريب أننى لم أفكر في الجرى لحظة وقع عليه بصرى
وقد فوجئت به قريبا منى أقرب ما يكون ، على بعد
خطوات • وظل يشملنى هدوء غريب وشعور بالراحة
والسلام ، فى داخلى ، وفى كل ما حولى •

ربما كان مبعث هدوئى وسلامى والراحة تلك أننى
تمشيت طويلا كمتجول ، مجرد متجول ، فى المستشفى
الجديد الذى سأعمل به ، دون أن تسند الى أية
مهمات أو مسئوليات بعد • ومن ثم ، كنت طليقا لأول
مرة فى حياتى العملية ومتخففا تماما من كل هذه الهموم
التي تثقل على طبيب نفسى • وأحسست لأول مرة كم
هو هادئ ووديع مستشفى نفسى تظله الأشجار ويسبح
فى البساتين • وتشبعت روحى بالحياد اللانهائى للمرضى
المسلمين والمتجولين بتودة فى الماشى أو الجالسين فى
سكينة على أرائك الجذوع تحت عرائش بهجة
الصباح والعنب البرى

ربما ، وربما كان مبعث هدوئى وسلامى والراحة
 تلك ، أننى فى محاولة الخروج من المستشفى المترامى
 والمجهول بالنسبة لى ، ضللت طريقى ، ودخلت فى نطاق
 الغابة القريبة ، وتهدت فيها طويلا حتى تشبعت روحى
 بروحها .

لقد شدتنى الغابة رغم لافتة التحذير بعدم الاجتياز
 التى صادفتها فى البداية . ورغم سور الشباك السلكية
 العالى الذى تسلقته بنشوة . شدتنى بكاراة الظلال تحت
 عرائش الأغصان المتشابكة ، وبكاراة النسيم الرطب فى
 هذه الظلال ، وبكاراة الخطو فى مدارج يموها العشب
 ويغطى أرضها ركام الأوراق المتساقطة فى مواسم خريف
 عديدة مضت ، ولم تطأها قدم ، فكانت تتحلل ببطء مرئى
 دون أن تدهس وكأن حشرات دقيقة خفية تتأكلها . بينما
 كان هناك دائما ، فى الأعلى التى تضىء خضرتها
 الشمس ، وفى التجاويف التى يخفيها العشب وجنبات
 الزهور ، وعلى الأغصان . . ذلك الشدو الذى لا ينقطع
 لكروانات الغابة وكل طيورها والعصافير . ومن ثم
 التقيت بالذئب .

كان يصعد داخلا بجسده البرى المرن بين شجيرات
 العشب الخفيضة ، وكنت أهبط ملتذا بذلك الشعور

المقاوم لجذب الأرض وللتلاطم المتسارع بين جذوع
الأشجار الرطبية • ولحظة وقع عليه بصرى توقف ، كأنه
أحس بى أو أبصرنى بجانبه • وتوقفت أنا الآخر •

التفت نحوى ، فصرنا متواجهين • وأحسست بكلمة
« ذئب » تتردد داخلى ببساطة مفتبطة وكأنها كلمة
« طفل » ، أو « وردة » ، أو « عصفور » • ووجدتني
أخطو نحوه بجذب لا يقاوم • كالمنوم ، أو المسحور ،
دون أن تعترينى ذرة من خوف •

مر ببالى ، بالطبع ، ذلك الشريط من الحكايات
والصور • عن فتك الذئاب بالحملان والبشر ، ومناورات
جماعاتها للايقاع بالفرائس • ودوت فى الذاكرة أصوات
رصاصات تردى ذئابا هائجة ، وصراخ ضحايا تنهشهم
الأنياب • لكن هذا كله مر مروراً ناعماً ببالى ، وبلا
تعليق من انفعال أو شعور • وكأننى لم أكن على مقربة
خطوتين من ذئب •

لأكثر من خمس دقائق مكثنا ، أنا والذئب ، ينظر
كل منا الى الآخر • بفضول هادئ أو واجهه ، وهو ينظر
نحوى فى هدوء • يتململ فيحرك قليلا احدى قوائمه ،
أو تسرى نبضة خفيفة فى ذيله ، وأنا أستريح فى وقفتى

بقربه وأسترخى . . أتأمل بصفاء ذلك الصفاء الكهرمانى
 فى قزحيتى عينيه ، ويأسرنى النقاء الخالص لشعر ظهره
 الداكن وذيله الملىء . ويعجبني بافتتان ذلك التناغم
 القوى فى بنائه حتى أفلت منى الهمس : « ياه . .
 ذئب جميل . . جميل خالص » . بل وجهت اليه همسى :
 « أنت ذئب جميل . . جميل خالص » . ثم اننى ودعته
 قبل أن أستدير عنه لأهبط : « سلام . . سلام » .

وما أغرب أننى كلما كنت أمضى فى هبوطى للخروج
 من الغابة ، كلما كان يفزونى الارتعاب . . أتوجس أن
 الذئب ربما كان يتبعنى . وتستولى على هواجسى حتى
 أخشى من مجرد الالتفات . ثم يفاجئنى السور السلكى
 بأسرع مما كنت أتوقع ، ويملؤنى ضجيج الشارع
 القريب دفعة واحدة ، فأجد نفسى بلا تفكير أركض .

رميت بنفسى على السور ورحت من فورى أتسلقه ،
 بطريقة لم أتصورها أبدا كامنة فى داخلى ، وكأننى
 حيوان برى من فصيلة النمر أو الفهود أو القطط . .
 وكان أصابعى مغالب خرجت من أغصانها لتنشب فى
 الشباك السلكية للسور أتسلقه . بخفة الوحش أو
 المرعوب أتسلقه . وكنت موقنا أن الذئب يتبعنى ، وأنه
 سينهشنى أول ما ينهش من الظهر . وعند القمة صك

سمعى بوضوح صوت سعاره ، فاستدرت ملسوعا لأرمى
بجسمى بعيدا عن الغابة ، فى اتجاه الشارع •
لم أترك جسمى ليسقط سريعا ، اذ لبثت مطويا
بأعلى السور حتى استدرت وأطلت على الغابة •
مسحت ببصرى أقصى ما تسمح به الفرج بين
الأغصان من مدى يمكن تتبعه • • رأيت
مدارج العشب وجنابات الزهور البرية بين الجذوع •
رأيت بقع الضوء المخضوضر والظلال • ولم أر فى كل
هذا المدى أى أثر لذئب • أى ذئب ؟!

— وها أنذا أكتب غيرها —

الشتاء ، وهى ، وأنا ..

ثلوج ناصعة البياض تغطى الأرضفة وشجر عار من
الأوراق ينتصب داكنا وسط الثلوج • وألمح الكرات
النباتية الخضراء بين الأغصان العارية • فأهتف لمغزى
أقصوة فى الأفق وأنا أشير منبها اياها : « عش ظل
أخضر للعصافير التى لم تهاجر • أى رحمة فى قلب
الأشجار ؟ » •

وتضحك محبطة مغزى : « ها .. هذه ..
يمىلا » ، مجرد نبات متطفل على أغصان الحور • يحيا
فى البرد القارص على عصارة غيره • وهو محكم
الالتفاف على نفسه ، لا يمنح أى عش لأية عصافير •

وتضحك قائلة : « اكتب غيرها » •



الربيع ، وأنا ، وهى ...

آخر الثلوج تذوب فى الدفء الطالع • وجداول
 بدايات الربيع تسيل على الأرضفة وفوق الأسفلت
 منبئة عن قرب ازدهار الخضرة • وأنظر الى « اليميلات »
 المتطفلة على أغصان الحور قائلًا لها : « ستنبثق
 الأوراق سريعًا من البراعم ، وتأخذ حقها من عصائر
 أشجارها الأم • عندئذ لن يتبقى شيء للنبات المتطفل
 الغريب • ستذبل « اليميلات » وتسود موتًا •
 وتضحك مخيبة ظنى : « ها • • سترى • •
 ستتفجر الخضرة نعم • لكن لن تموت « اليميلات » •
 ستظل مخضرة ، وان غبراء ، وسط الأغصان المخضرة •
 وتضحك ثانية وهى تقول : « أكتب غيرها • »



الصيف ، وهى وأنا • •

خضرة الصيف الشمالية الشهيرة • العالم المثقل
 بالاخضرار ، وارتعاش أوراق الحور المتخمة بالأخضر
 العميق لحد الائتلاق فى الشمس • و « اليميلات » هناك
 • • ألمها كامنة غبراء ، حية مازالت بين الأغصان
 المخضرة • فأجرى مفتاظًا أصد إلى أقرب شجرة حور •
 وتخيلنى وأنا أصد صور كل الطفيليات الدنيا
 والعليا • من أول ديدان الأمعاء وحتى البشر السفلة •

وتصرخ مرتعبة : « ماذا تفعل يا مجنون ؟
انزل • انزل • الحور أغصانه ضعيفة ستتكسر تحتك •
انزل » •

وأضحك عاليا ، قائلا فى ارتقائى : « انى أكتب
غيرها » •



(ولم تكن أغصان الحور بهذا الضعف الذى تخيلته •
احتملت الأغصان صعودى حتى القمة • وهناك
مددت يدى نحو كرة « اليمىلا » الغبراء المخضرة •
وما كادت أصابعى تلمسها حتى • • هوت) •

● حنين ●

راحة

خلعت فردة قفازى اليمنى ورحت أخذش الجليد
على الزجاج ، وراحت هى تنظر الى ما أفعل فى هدوء ..
كانت فى صف المقاعد المنفردة وكنت واقفا الى جوارها ،
صدفة ، خائفا أن تفوتنى المحطة والترولى يمضى ويتوقف
دون أن أتبين أى ملمح للدنيا فى الخارج .

كان ركام الأنفاس المتجمدة على زجاج النوافذ
يعجب كل رؤية .. طبقة كثيفة من الجليد صنعتها درجة
العشرين تحت الصفر ، رحلت أحاول خمشتها بأظافرى
لأتبين ملامح المحطات فى الخارج .. بدأت بأصبع ثم
اثنين ثم بلهفة رحلت أخمش الجليد بأظافر يدي الخمسة .
وبدا الشارع من الخارج شرطا ممزقة من الألوان التى
تمرق .

كنت غريبا وحائرا فى اللحظة التى تطلعت الى فيها
بعينيها الجميلتين الواسعتين . لعلها ابتسمت خفيفا ،
لعلها كانت تكتم ضحكها من معركتى مع الجليد ، تأسى ،

أو تشفق .. لكنها على أية حال ساقتنى بنظرة عينيها
الى نافذة الجليد المخدوش من جديد ..

رفعت يدها العارية الصغيرة ، الناعمة ، والوردية ،
وبسطت راحتها على الزجاج المتجلد . وكنت انتظر أن
تغربش من أجلى ، كما بدا لى من الوهلة الأولى ..
لكنها لم تفعل ..

بضع ثوان ثم رفعت يدها عن الزجاج وهى تبتسم ،
ابتسامتها الخفيفة تلك . وأدهشنى أن أرى طبعة راحتها
وسط الجليد على الزجاج .. نافذة صغيرة رائقة
الشفافية ، لم أر خلالها ملامح المحطات فقط ، بل أمكننى
التطلع عبرها الى التلال البعيدة المغطاة بالثلوج ،
والاشجار العارية القائمة عند الأفق ، والطيور المحلقة
فوق ذوَابات الأشجار .

نجوى الشجر

ايرينا ، ياتفاحتى . . أما كان أفضل ألا ترسلى
تلغرافك جنونى العذوبة هذا ونحن فى مدينة واحدة ،
« مع هطول أول الثلوج أقبلك » ، فتجعليننى أهيم فى
شوارع الصباح تحت نديف الثلوج حتى يجىء الموعد !

أتخيل لحظة جنونك الجميل هذا عندما استيقظت
مبكرة على هطول أول الثلوج ، وخرجت فى الصقيع
للأبراق : « مع هطول أول الثلوج أقبلك » . خمس
كلمات تبعثين بها فتكتسح كل نقاط الحراسة التى أحطنا
بها قلبينا ، كل الحواجز ، وتندفع مودتنا الى منعطف
جديد . . أهيم متأملا اياه على المدى غير المرئى . أمشى
متمهلا تحت دانتىلا الثلوج ، أخطو على ركام الثلوج ،
وأأمل ما سيكون بيننا . . وأأمل الأشجار : عرتها من
أوراقها أو كادت أهوية الخريف المنصرم ، فهى تكتسب
مع البياض الناصع الهاطل عمقا للدكنة حتى توشك أن
تبدو صافية السواد ، مبلولة ، تقطر . . تبدو لى وكأنها

تقاوم هذا البياض الجليل المنهمر عليها بآخر ما لديها من
سخونة تدفعها نحو اللحاء . . يتساقط عليه النديف
فيذوب أولا بأول ويتساقط قطرات نقية عن الاغصان
. . قطرات تشغل بايقاع تساقطها كل المدى الذى أمضى
فيه أو يتراءى لى . . أهيم نشوان وخائف . . فأنا ان
أخذتك معى سأفقدك الكثير ، وان بقيت هنا سأفقد
أكثر . . سيكون على واحدنا أن يعوض فقد الآخر
بتقريب عالمه البعيد اليه ومن ثم ازاحة العالم القريب
بعض الشيء . . هنا أو هناك . . سيكون على أن أتعمد
الحب فى مواضع ما يخص روحك ، وسيكون عليك نفس
الشيء . وآه يا ايرينا من سأم التعمد . . حتى فى الحب
. . » بيرفم سناجم تسلوويوتيبيا » ، « مع هطول أول
الثلوج أقبلك » . . أرددها بلسانينا نشوان ، أهيم تحت
كلة النديف الأبيض الحلمى ، مشمو لا بايقاع ما تصنع
الاشجار . . وما أغرب ، يا تفاحتى ، أن أحس بكون
هذه القطرات التى تتعلق بباطن الاغصان هنيهة ثم
تتساقط . . لا ينقطع تساقطها ، انهمارها . . ما هى
الا دموع الشجر . . وآه من مكابدة الشجر . . يا
تفاحتى ، يا ايرينا .

نصف راحة

سألتها فرحا وأنا أحس بالتكور الصغير البازغ
تحت يدي : « ايرينا .. لو جاء ولدا .. ماذا
نسميه ؟ » .. وردت بسرعه ويقين حلم دائم : « ساشا »
.. « ساشا » ؟! - رددتها شاهقا في انفعال حتى حسبت
أن شيئا ألم بى ، فارتفعت تسائلنى مرعوبة : « مابك
.. مابك » .. وأجبت مهونا عليها : « لا شيء .. لا شيء
.. فقط .. لقد كنت أريده أحمد » .. وراحت تجرب
الاسم .. متممة : « أخميد .. أخميد » .. ثم سككت
مقتربة بوجهها من وجهى فى ضراعة : « ساشا موخاميد
.. موخاميد .. ساشا » .. ليكن ساشا يا محمد ..
محمد .. ليكن ساشا .. وفى رققة عينيها الواسعتين
الجميلتين رأيت لأول مرة شدة غربتها عندما أخذها
معى الى مدن الزحام والصهد والغبار والضجيج واللغة
الغريبة عنها .. غربتها الخالية من أغاني أوكرانيا
المنعشة المرحية ، ورقصات الطواحين المتواثبة الدوارة ،
وبياض ثلوج الشتاء .. تلال خضرة الربيع ، والصيف ،

وكل ألوان الطيف فى الخريف . . لم أر لها أحدا بمثل
هذا القرب مثل وليدها « ساشا » . ربما لمت فى اسمه
طفولتهما المبتعدة كلها وحنان أبويها الذى كان وتديل
الجد والجدة المتنائين وفى نفس الوقت لم استطع الا أن
أرى أحمدى الصغير يدرج على أرض شارعنا الترايبى
الطيب المرشوش بالماء ساعة العصارى . . يلعب فى
ظلال بيوت الأهل والأصحاب المتواضعة الحبيبة ،
وتقبله لو تعثر فى غيابى أياذى الأهل والأصحاب .
لكننى وجدت نفسى بين رقرقة عينيها وظلال البيوت ،
أتهد نابساً : « ليكن يا ايرينا . . ليكن ساشا أحمد أو
أحمد ساشا ، وليناديه كل منا كما يحب » . عندها ،
كانت فى حضنى تبدى أمائر امتنان القطط ، وكانت
تواتينى نصف راحة القسمة .

— صوتك —

قالت لى ايرينا : « محمد • • قل شيئاً » •

قلت : « ليس لدى ما أقوله » •

قالت : « لا أريد كلاماً • • أريد صوتك » •

فسحبت من الرف القريب مختارات من شعر بلوك
وايسينين ويوشكين ، بلغتها ولفتهم ، ورحت أقرأ •
لكنها سحبت من يدى الكتاب سريعاً ، ونحته وهى تقول :
« اللكنة تفسد الشعر » •

وعادت تقول : « أريد صوتك » •

فأغمضت عيني ورحت أقرأ ما يطيب لى قراءته
عندما أكون وحيداً • • شيئاً من سورة الرحمن ، وقصيدة
للسياب ، وأخرى لدرويش ، ومقتطفات من الطيب
صالح ، والنفرى •

وعندما فتحت عيني وجدتها تغفو على صدرى كطفل
آمن • فسألتها فى خفوت : « نمت ؟ » •

فتحت عينيها الطازجتين مندهشة وهي تقول :
« لا لا • أبدا • لماذا توقفت ؟ » •

ولم أكن أحب أن أتوقف ، ليس لأجلها فقط ، ولكن
بالأكثر .. لأجل روحى •

الحدول

لعله كان عربيا ، أو أمريكيا لاتينيا ، أو من شبه القارة الهندية ، فقد كان أميل الى السمرة ، ودقيق الحجم ، وبلغته لكنة واضحة وهو يتساءل بعد أن جاء وتوقف الى جوار أحد الصيادين المنتشرين على صفحة « الدنيبر » المتجمدة : « لماذا لم تتجمد الاسماك أيضا هناك .. فى العمق ؟ » .

كانت بعينه السوداوين ظلال حنين يترنح ، ولم يكن واضحا بضباب أنفاسه التى يكثفها صقيع العشرين درجة تحت الصفر أى أثر للخمرة ، وقد أقعى الى جوار الصياد يتأمل الحفرة الفائرة فى الجليد والتى يتدلى فيها خيط الصنارة . وكان يتمتم كأنه رجع الصدى لاجابة الصياد على سؤاله : « تحت هذا الجليد دفء .. كأنه فى مياه البحار والانهار لديكم » .

« دفء .. كأنه فى مياه البحار والانهار لدينا .. آه ، كأنه فى مياه البحار والانهار لدينا » أخذ يردد

باستعذاب جنونى وهو ينزلق مدليا ساقيه فى الحفرة ،
مباغتة الصياد الذى جمده الدهول وأعاقه عن سرعة
الحركة دثاره الصقيعى الثقيل ونصف زجاجة الفودكا
التي جرعها ليتدفأ .

وعندما استطاع الصياد أن يمسك بكتفيه أخيرا
ليخرجه ، تملص وهو يردد بطمأنينة بالغة : « لا لا لا ..
لا تخف .. لا تخش علينا فى المياه الدافئة . لا تخش
علينا فى المياه الدافئة » .

مكث الصياد الشمالى مقعيا على أربع ، يحدق
مذهولا فى الحفرة الفاغرة فى الجليد .. يحدق فى عتمة
المياه الباطنية البعيدة التي لم تتجمد . ثم راح يرفع
وجهه المذهول ببطء الى العالم من حوله .. الى الضفاف
المغمورة بالثلوج ، الى صفحة النهر المتجمد الناصعة ،
ونقاط الصيادين الداكنة المتناثرة عليها .

كان الصياد ينادى زملاءه ، لا للاغاثة ، ولكن ..
ليسأل أقرانه عن الامكانية الغربية لتحول انسان جنوبى
داكن الى سمكة بنية كبيرة ، لم يألف مثلها أبدا فى مياه
« الدنيبر » .

عطش

قبيل أن أهبط الى نفق المترو تجسّلت في ذاكرتى محطة أتوبيسات « العتبة » فى يوم قائف . ووجدتنى أتجه الى ماكينة العصير بالصودا . رغم أن الجو كان غائما ودرجة الحرارة منخفضة بالنسبة لهذا الوقت من أيام الربيع الشمالى . ورغم عدم شعورى بأى درجة من درجات العطش وترددى فى الشرب ، فان يدى كانت قد أخرجت « الفكة » من جيبى وراحت أصابعى تفرزها بحثا عن قطعة من فئة « الثلاثة كاييكات » التى تلقم بها الماكينة لتصب كوبا من العصير .

ولما لم أجد معى « ثلاثة كاييكات » فاننى تلفت حولى . . لم يكن هناك أى أحد على رصيف المحطة ، وكان كشك الجرائد مغلقا فى ساعة الراحة . لكننى لمحت الصندوق الصغير فى ظهر مظلة المحطة لمبته مضاءة مما يؤكّد أنه يعمل وقد كتب عليه (١٥ كاييكا =

٣×٥) ، فاتجهت اليه اذ كانت معى قطع عديدة من فئة
الخمسـة عشر كاييكا .

وضعت فى « عين » الصندوق قطعة الخمسـة عشر
كاييكا ، وسمعت جرس الاستجابة للاعطاء ، فمددت يدي
مسرعـا الى الفتحة السفلى لأتلقى (الفكة) ، لكـتـنـى
فوجئت بالماكيـنة تخرج ثلاث تذاكر للمواصلات من فئة
خمسة كاييكات لكل تذكرة ، فادركت أننى أخطأت
قراءة اسم الماكينة ، وأدركت أننى لن أرتوى حالا ،
فجننى شعور حارق . . بشدة العطش .

استغراب —

طلعت عند « فتحي » و « سناء » ، وكان ابنيهما « طارق » فرحا بأن يجيء اليهم ضيف ، يضع لعبه كلها على عربة الشاي ويدفعها أمامه مناديا : « لعب للبيع ببلاش • لعب للبيع ببلاش » ، فنضحك • ونضحك أكثر اذ يلقي فتحي بلهجته الصعيدية آخر نكتة عن الصعايدة : « حسنين جرى على محمد بن يقول له : محمد بن • الحق ، أبوك داس على رأسه القطر • فزقق محمد بن : تاني ! » •

وامتد حبل النكتة حتى جاء الأكل •

طبخت لنا سناء ملوخية بالثوم المقدوح على شوربة بطة بالفريك ، وكان هناك خيار مخلل بالليمون والفلفل والكمون المرشوش ، والحلو لقمة القاضي • أكلنا حتى امتلأنا وأتينا على الأطباق كلها ، وآخر الأخبار العامة والخاصة • ثم سمعنا شريطا لسيد درويش بصوت حفيده •

وتواعدنا ، وتواعدنا ، ونزلت . .

نزلت ، وفى الشارع مشيت بتثاقل من شدة التخمة ،
وكنت أردد بمزاج ناعس أغنية سيد درويش : « والله
تستاهل يا قلبى » . وهىء لى أن الأشجار ربما تكون
تكاثفت أو تغيرت بشكل ما ، والشوارع اتسعت وانتظم
شكل المباني . ثم استغربت لكثرة « الخواجات » فى
الشارع من حولى . . البنات الشقراوات والرجال الشقر
والأطفال الذين يشبهون عرائس اللعب !

قلت فى نفسى : من أين أتى كل هؤلاء الغرباء ؟
ولماذا أتوا الى هنا ؟ . ثم بدأت أسمع لغتهم الأجنبية ،
وهىء لى أننى سمعت هذه اللغة من قبل وأحس
بايقاعاتها . وكنت كالمذهول أتطلع الى وجوه الناس
الذين يمرون بى وأمر بهم . وعندما اصطدمت بأحدهم
وأنا أمشى بجانبى فى التفاتة حادة ، وجدتني أنطق
بهذه اللغة الأجنبية : « معذرة . لا تؤاخذنى » .

واكتشف فى أعقابها على الفور أننى - أنا - هنا
- الغريب .

ضيوف

« محمد .. هل كان عندك ضيوف بالأمس ؟ لقد سمعتك تكلم أحدا بالليل » يسألني جاري « فيكتور » في الصباح ، فأحار مرتين : ماذا أقول ؟ .. ولماذا يسألني ؟

قرب نهاية الليل أكون قد أنهكت تماما ، ولحظة نهوضي من خلف المكتب يلف دوار كحوامات الهواء في رأسي . وتحين مني نظرة عبر النافذة الى الخارج . فلا أرى غير الليل .. ليل الغربة الموحش الذي يفرق بالظلام كل ما كان يسرى عن النفس في النهار من ألوان وحركة . وبمباغطة حنون أسمع من يناديني : « محمد .. يا محمد » ، فالتفت ورائي . انها أمي ..

أراها جلية كما يمكنني رؤية أصابعي هذه في نور ساطع ، ومع ذلك أحس بالعجز عن الاقتراب منها . أقول لها : « أمي .. ازيك يا أمه » ، فتسألني : « ازيك انت يا بني .. عامل ايه يا ضنايه » . وأمد يدي أمامي ، نحوها ، وقد ضاعت مني كل الكلمات غير كلمة

واحدة أظل أرددها ، ومع ذلك أحس بأنها كافية وتقول
عبر تلون النبرات كل ما يمكننى قوله « أمى .. أمى » .
وتمضى .

اتهاوى على سريرى ضعيفا ضعف سمكة منهكة
استسلمت لموتها على الشاطئ ، لكننى فجأة أنتفض ..
أنهض وأبعث ملهوفاً عن ساعتى اذ يلسعنى الخاطر ..
نعم ، فبحساب فارق التوقيت تكون هى مستيقظة هناك
فى « المنصورة » ، بعيد صلاة العشاء ، ويكون فى
مقدورها أن تلتفت لتطل على . اننى لا أشك فى ذلك ،
ولا أخاف من حدوثه ، وان كنت لا أخبر به أحدا حتى
لا يجرحنى الارتياح .

« لكن .. لماذا تسأل يا فيكتور ؟ » . « لأننى أحيانا
ينتابنى الأرق ، وأكون فى حاجة الى مسامرة الناس ..
هل يمكننى أثناءها أن أطرق الباب وأدخل يا محمد ؟ » .
« لا لا .. لا يا فيكتور » ، أقولها بما يشبه الصراخ ،
واكتشف حدى فى الرفض . فاضطر الى التعليل أمامه
بأن ضيوفى من بعيد .. غرباء ، ولا يتكلمون الا
بالعربية .

صوت السياب —————

لم أكن أصدق السياب تماما وهو ينادى ، مقروح
الكبد ، من بعيد .. من وراء البحر ، من خلل الضباب
والغيوم . تعوزه نقود السفر . وينادى : « عراق .
عراق . عراق » .

ولقد سافر الاسبان الى أوطانهم ، سافر الأفارقة ،
والآسيويون سافروا . كل زملائي سافروا في عطلة
الصيف الى أوطانهم وخلوني وحيدا في وحشة مسكن
المختربين الكبير .

وها أنذا ، المصرى ، وحدى ، يرن صوتى بالأسى
عبر ردهات عشرة طوابق خاليات .. ثلاثمائة غرفة
لا يسكنها أحد ، اللهم غير صدى الصوت الغريب ..
كلما ناديت مصر يجيبنى : « عراق . عراق . عراق » !!

انى لأهديها الأغنية —————

ربما لأننى كنت على ضفة نهر ، وربما لأننى كنت
أديم النظر الى الماء ، وبالتأكيد لأننى كنت أشعر بحنين
ساحق وغريبة .. وجدت نفسى فى نسيم ضفاف
« الدنيير » الربيعية ، أغنى .. بشجن خالص أغنى ..
أغنية للنيل البعيد وحب كان لى على ضفافه .

ولعله نسيم النهر ، أو رجع الصدى ، هو الذى
حمل صوتى — الذى لم أتوقع ارتحاله بعيدا — اليها ،
فاستدارت ، وتوقفت مرتكئة على السياج . وعندما
حاذيتها فى طريقى أوقفتنى سائلة بتردد : « أنت ..
أنت الذى كنت تغنى بلفظة ما ؟ » . قلت : « نعم .
بالعربية » .

فرجتنى أن أكرر الغناء .

شمرت بالارتباك فى البداية ، ثم أطلق فيض الحنين
وجمالها الوادع صوتى المتحشرج ، فأطاعنى .. أطاعنى
الى درجة مذهلة ، وبدأ شجيا حتى لسمعى . وكان

لاستفرايى يشجيتها • فسألتها ان كانت قد فهمت شيئا ؟
 وأدهشتنى بقولها ان الأغنية عن حنين لحبيب بعيد وضفة
 نهر ما • ولما رأت دهشتى فسرت لى ، أنها أحست بذلك
 لأننى كنت أغنى بشجن بينما أرنو بافتقاد الى صفحة
 الماء وأبسط راحتى خفيفا على مدى الضفة •

ثم انها استعادتنى الأغنية

لم أكن أغنى لأجلها تحديدا ، بل كنت أغنى
 - أكثر - لنفسى ، لانقطاعى الموحش وابتعادى • واذ
 بها تبكى رانية الى الماء ثم رافعة وجهها الى الضفة ،
 فأفهم بشعور يقينى أنها تعاني من افتقاد لبعيد ما
 وحنين لضفة نهر أخرى • ولما سألتها أكدت حدسى ،
 لكنها أربكتنى باضافتها أنها من نفس المكان على الضفة ،
 لم تغادره أبدا • ثم أجهشت •

تماسكت قليلا لتقول لى عبر تهدجات صوتها
 المرتعش ، انها لم تذهب الى أى مكان آخر لكن الأماكن
 هى التى تذهب بذهاب من نجبهم عنها ، والنهر ، لا يصير
 النهر ذاته • ثم مالت نحوى ، مجهشة من جديد ، وملت
 نحوها •

تساندنا بتماس مرهف كأننا فى فضاء • • مجرد

طائرين مبحرين في حنين ، أحدهما نحو مكان بعيد
والآخر نحو زمان بعيد .. التقيا في نقطة عابرة ،
فتأسيا بلحظة نادرة من لحظات توقف الزمان وامتزاج
الأمكنة . لم أعرف اسمها ، ولم تعرف اسمي .. واني
لأهديها الأغنية .

● وقفة ●

صدفة القلب

عملية مرعبة ، نعم . . ولكن . . من كان يصدق أن كل هذا الحجر على قلب الانسان ؟ رغم الراحة ، والأمان الممدود ، والوفرة . . بل ، لعل هذه الراحة ، والأمان ، والوفرة . . هى ما حمل الى القلب كل هذا الحجر . لحظة بعد لحظة ، وكل لحظة تحمل الى غشاء التامور المسترخى شيئاً من ملح الكلسيوم عبر تيار الدم المتباطئ . واستعال القلب النعسان فى هذا البعد الشمالى الى سجين لا يشعر بسجنه فى جوف هذه الصدفة من التامور المتكلس . . أطرق عليها عبر صدرى المشقوق فيجزم الرئتين بفسوخ الحجر ، تصخر ، والقلب نائم فيها لا يمتلىء حتى تمامه ولا يضخ بكل العافية . ولم التمام وكل العافية وكل شئ يأتى بسهولة فى هذا البعد الذى فررت اليه رافعا شعار « لا العين ترى ، ولا القلب يوجع » . وها هى العين لم تعد ترى صور الهموم فى وطنى ، وصار القلب حقا لا يوجع . لكنه - هذا القلب

— ليس معافى ، بل صار يمسكه الوهن • صحيح أن كل شيء يأتيني هينا فى مجتمع هبطت اليه بمظلة الغريب • •
أنعم بالدفع وأنا أطلع من وراء الزجاج بهاء مسدن الثلوج الناصعة المضيئة ، وتأتيني المحبة دون أن أتجشم حتى دور العاشق • • أكل من خبز ولحم وفاكهة صراع لم أخضه أبدا ضد حدة الفصول • لكن ، وأنا أرى الآن كل هذا الحجر على قلبى أدرك أننى لست بخير • ويتفتح وعيى على وقائع الحفرة المملوءة بالثلوج الآن فى الحديقة المواجهة والتى تمتلئ بنضارة العشب وتفتح الزهور فى الربيع • • لقد احترق فيها مائة ألف من المواطنين العزل بعد مذبحة بالرصاص وجنازير الدبابات • ثم خرج من الغابات مئات الآلاف ليدحروا الغزاة ويحرروا مدينتهم • ولم يكن هناك فى المدينة غير خرائب وعشب محروق وأهل مهروسين ومتفحمين •
نفس المدينة التى أجد فيها الآن راحتى المجانية • راحتى المدفوعة سرا من دمي • • جزيئة كلس من بعد جزيئة ، تجمعت لتسجن قلبى فى هذا الحجر الأبيض الجبرى الذى أراه ، وألمسه ، وأدق عليه فيفز عني الرنين • •
تصخر الحجر • • وفى رنين الفرع أرفع يدي بالازميل القاسى وأضرب • • ضربة ، فتتطاير من صدفة التامور المتصخر شظية تترك مكانها نافذة صغيرة يطل منها

نسيج القلب . . ورديا نبذيا أحمر يطل ، حيا لا يزال
.. يناديني لأعاود رفع ازميلي هذا ، ازميل الرجوع ،
وأضرب . . أضرب . . أضرب . . أضرب . والخطر
مع كل ضربة ينذر بقطع وعاء دموى من الأوعية التاجية
الرقيقة . . تتبدى محيطة بالقلب كشبكة رى قانية
مرهفة . لكننى أواصل الضرب ، لأعود . ستعود العين
ترى الهموم ، نعم . وسيعود القلب يوجع . ولعله
سيكون وجعا أشد ، بعد هذا البعد ، هذا الرغد . . الذى
كان . . وجعا لقلب مكشوف فقد تاموره . . قابل
للاختلال بهزة ، أو الانجراح بلمسة ، أو الانفجار فى
انفعالة صغيرة زائدة . . لكن المؤكد أن هذا القلب
المزاح عنه الحجر سيكون قادرا على الامتلاء حتى تمامه ،
وضخ الدم فى العروق غزيرا . ولعل هذا فى حد
ذاته يكتسح الألم .

● في طريق الرجوع ●

تبعاً لنظرات الكراهية —————

تبعاً لنظرات الكراهية التي كان يشذرنى بها صامتا كلما تواجهنا عرضا ونحن جاران فى غرفتين متقابلتين بفندق شارع الميناء فى بيريه رجعت أن الصوت العالى السكران صوته ، رغم أننى كنت داخل غرفتى وهو فى سكره لا يدرك أننى أسمع بوضوح .

كان الشئ المفزع أننى رجعت كونه يوجه كلماته الفظيعة الى « نيكول فواتى » ، فهذا موعد قدومها وهى لا تتخلف عن موعدها قط . ولا بد انه قطع عليها الطريق فى الردهة بين الغرفتين ، وراح يهدر : « آيه . . ما الذى يعجبك أيتها الأوربية فى هذا العربى الجدى ؟ . انه يفعل من الخلف ؟ هل يفعل من الخلف ؟ نحن معشر الأوربيين نستطيع أيضا أن نفعل » .

لقد سمرنى حديثه فى مكانى قرب الباب ، سمرنى لأنه لم يكن هناك ما يمكن عمله كما تصورت لحظتها

الا قتله • ليس لأجل نفسى تحديدا ، بل أكثر لأجل
 « نيكول فواتى » النادرة • والتي يستحيل توجيه مثل
 هذه القذارات اليها ، وبملاسات معرفتى بها • فهى
 ببساطة امرأة لها سمو وجمال الفكرة • أمها بولندية
 وأبوها فرنسى وهى تسوح فى الدنيا باحثة عن ملامح
 الفنون فى الحضارات القديمة • وعندما تعارفنا صدفة
 فى بهو الفندق ، جمعنا ولع مشترك بجمالية انسان
 الحضارات الأولى • وكنا نلتقى لتبادل المعارف فى هذا
 الشأن ، لم نتجاوزه أبدا ، ولم نرد • • لا هى ، ولا أنا •
 فقد كان الحديث بيننا مشبعا لعد التسامى ولحد
 التحليق •

بعد دهر من الجمود استطعت أن أمد يدي وأفتح
 الباب • • فتحة صغيرة لكنها كانت كافية لكى أرى
 شبحه وهو يتوارى مسرعا خلف باب غرفته ، وأرى
 « نيكول فواتى » أمامى جامدة مذهولة • • بيضاء
 كالثلج ، حتى اننى رجعت كونها أصيبت بصدمة وعلى
 وشك السقوط على الأرض • فمددت لها يدي • • مددت
 يدي ببطء ذاهل ، عبر ذهولى أنا الآخر ، فراحت تمد
 يدها ببطء • • ثم خطت خطوة ، فخطوة • • ورددت أنا
 الباب بقدمى ، فاذا بنيكول فواتى ، كلها ، فى حضنى • •

تنهار • ثم ان الجسدين راحا ، كأنما لا أراديا ، يتواطآن
معا فى حراك كتوم ، كأنه دفع وسواس قهرى لا يمكن
مقاومته ، للدخول فى هذه الحالة الغريبة •

كمنجة .. للبحر

يقولون اننا سنسأل في الأخيرة عن أى امرأة نحب
أن تمش معنا فى الجنة من بين كل النساء اللائى
عرفناهن فى الدنيا . ولو تصورت أن هذا السؤال يوجه
لى لأخترت ، رغم كل شيء ، وبلا تردد : « أندرولا » .

« أندرولا » التى لم أعرفها غير ثلاثة أيام ، مسافة
ابحار السفينة المتملة من استانبول - حيث
صعدت . الى لارناكا - حيث هبطت ، بينما كنت أنا
قادما من أوديسا ووجهتى الاسكندرية .

كانت من العذوبة والبهام والدفء بحيث تجعل
الانسان يتألق أمامها ، فيصير اللف وأكفا مما عرف
نفسه أو عرفه الناس فى حياته كلها .. يتفوق على
نفسه ويعطى أفضل ما عنده فى كل شيء . هذا ، اذا وقع
فى دائرة بهائها مثلما وقعت ونحن ناوى الى قمره
واحدة . وفى مهبمين متجاورين بالطسوابق الأولى من
أمرة السفينة .

كانت لا تترك من يدها « كمنجة » بنفسجية الغلاف
 ألححت عليها مرارا في النهار أن تسمعني عزفها ، لكنها
 ظلت تتهرب • وفي الليل كفت عن العاجي اذ كنا ننقل
 وسائدنا الى الأطراف المتقاربة من المهاجع ونقضى سواد
 الليل كله نتهامس حتى لا نزعج النائمين معنا في
 القمرة • ونزحف على بطوننا لنختلس القبل التي لن
 يفادر طعمها الحلو فمي ، أبدا ، مهما حييت •

ولما كانت سفينتنا تقترب من لارناكا التي تبدو
 عمائرها البيضاء طافية فوق الماء بغير أرض ، قلت لها
 ضاحكا بجدية لم أثق بمثلها عمري : « اندرونا • •
 اختاري • • اما أن تقولي للارناكا وداعا وتواصلني مع
 حتى الاسكندرية • أو أقول أنا للاسكندرية وداعا
 وأهبط معك في لارناكا ؟ » •

قالت بضحك لم أر حزنا في مثله : « جميل • • أجيء
 أنا معك ويدبحني أهلك ! أو تجيء أنت معي ويدبحك
 أهلي ! ماذا تختار ؟ » • ولما رأت دهشتي ازاء لغة الذبح
 هذه ، أسرت لي في تأثر شديد بأن أباهما القبرصي
 اليوناني قتله القبارصة الأتراك وعلقوه مشنوقا في
 عارضة باب محل الفواكه الذي يمتلكه عند الخط
 الفاصل • وعندئذ انتابتها توترات جنونية وأخذت

تضرب افريز شرفة غرفة الحبال الخلفية التى توارينا فيها بصندوق الكمنجة ، ضربات عنيفة حتى انفتح .. واذا بداخله بندقية .

لم أحس أبدا مع مفاجأتى بأنها كذبت على أو أننى خدعت .. بل أحسست أكثر بالحزن والألم لكونها مثقلة بهذا الوزر ، والى هذا الحد . وقلت لها مشيررا الى الصندوق قبل أن ترسو السفينة : « ليتك تلقيه فى البحر يا أندرولا » . فنشجت وهى تردد : « كم أحب لو ألقيه فى البحر . آه كم أحب » .

وعندما كانت السفينة تستدير عن لارناكا عائدة الى البحر ، لم تعد عندى أندرولا . ولكم شعرت بالوحشة ، وبالفجعة .. أصابتنى حمى مفاجئة واكتئاب شديد ، حتى أننى لم أهبط مع سائر الركاب للاطلال على اللاذقية التى أحبها . ومكثت وحدى فى قاع القمرة الخالية .

فهرس

٥	• • • • • • • • • •	● أول هذا السفر
٧	• • • • • • • • • •	تألفة قرب الجناح
٩	• • • • • • • • • •	● مدخل
١١	• • • • • • • • • •	انسان الجليد
١٣	• • • • • • • • • •	درب الجليد
١٥	• • • • • • • • • •	سيد في الجليد
١٧	• • • • • • • • • •	شمس على جليد
١٩	• • • • • • • • • •	عصافير الجليد
٢٣	• • • • • • • • • •	● ترددات
٢٥	• • • • • • • • • •	الغابة
٢٧	• • • • • • • • • •	الآخر
٢٩	• • • • • • • • • •	حين مالت
٣١	• • • • • • • • • •	موقف الحقيقة

● زوايا للرؤية

٢٢	• • • • •	على الخط الأبيض
٢٥	• • • • •	لغة جديدة
٢٧	• • • • •	الحارس
٤١	• • • • •	تصوير أشجار الحديقة
٤٣	• • • • •	بقايا النار
٤٥	• • • • •	وسط المنضدة
٤٩	• • • • •	في البعيد
٥١	• • • • •	الجزء والكل
٥٣	• • • • •	في نهاية الغابة
٥٥	• • • • •	الذئب
٥٩	• • • • •	وهانذا أكتب غيرها
٦٥	• • • • •	

● حنين

٦٩	• • • • •	راحة
٧١	• • • • •	نجوى الشجر
٧٣	• • • • •	نصف راحة
٧٥	• • • • •	صوتك
٧٧	• • • • •	الحلول
٧٦	• • • • •	عطش
٨١	• • • • •	استغراب
٨٣	• • • • •	ضيوف
٨٥	• • • • •	

- ٨٧ صوت السياب
- ٨٩ انى لأهديها الأغنية
- ٩٣ ● وقفة
- ٩٥ صدفة القلب
- ٩٩ ● فى طريق الرجوع
- ١٠١ تبعنا لنظرات الكراهية
- ١٠٥ كمنجة للبحر

صنبر من علم السلسلة :

- | | | | |
|----|----------------------|--------------|-------------------------|
| ١ | قنبر فانم | (قصص) | ● الرجل التاسع |
| ٢ | عبد الرحمن فهمي | (قصص) | ● دموع رجل تائه |
| ٣ | أبو العاطي أبو النجا | (قصص) | ● الجميع يربعون الجائزة |
| ٤ | بهاء طاهر | (قصص) | ● بالأمس حلمت به |
| ٥ | شكري عياد | (قصص) | ● رباعيات |
| ٦ | عبد الغفار مكاوي | (مسرحيات) | ● من قتل الطفل |
| ٧ | جمال الغيطاني | (قصص) | ● منتصف ليل الغربة |
| ٨ | محمد المخزنجي | (أفلام) | ● رشق السكن |
| ٩ | فاروق خورشيد | (قصص) | ● وعلى الأرض السلام |
| ١٠ | عبد الحكيم قاسم | (رواية) | ● الأشواق والأسي |
| ١١ | جميل عطية إبراهيم | (رواية) | ● والبحر ليس بملآن |
| ١٢ | سحر توفيق | (قصص) | ● ان تنحدر الشمس |
| ١٣ | سعد مكاوي | (رواية) | ● لا تسقني وحنى |
| ١٤ | شكري عياد | (قصص) | ● كهف الأخيار |
| ١٥ | ادوار الحراط | (قصص) | ● محطة السكة الحديد |
| ١٦ | محمد إبراهيم أبو سنة | (م. شعرية) | ● حصار القلعة |
| ١٧ | محمود عبد الرحمن | (قصص) | ● أربعة فصول شتاء |
| ١٨ | يحيى حلى | (قصص) | ● سارق الكحل |
| ١٩ | بهاء طاهر | (قصص) | ● انا الملك جنت |
| ٢٠ | عبد الرحمن فهمي | (قصص) | ● تاريخ حياة صنم |
| ٢١ | عبد جبير | (قصص) | ● الوداع : تاج من العشب |
| ٢٢ | محمود الورداني | (أفلام) | ● النجوم العالية |
| ٢٣ | عبد الرحمن الشرفاوي | (رواية) | ● قلوب خالية |
| ٢٤ | إبراهيم عبد المجيد | (قصص) | ● الشجرة والعصافير |
| ٢٥ | سليمان فياض | (قصص) | ● عطشان يا صبايا |
| ٢٦ | عبد الحكيم قاسم | (رواية) | ● طرف من خير الآخرة |
| ٢٧ | جار النبي الخلو | (قصص) | ● طعم القرقل |
| ٢٨ | شفيق مقلد | (رواية) | ● السحر الأسود |

٢٩	حسنى عبد القليل	(قصص)	● تسلق الجدار الاملى
٣٠	محمد المنسى قنديل	(قصص)	● اختصار قط عجوز
٣١	عبد الله خيرت	(قصص)	● رحلة الليل
٣٢	عالية ممدوح	(رواية)	● حبات التفتالين
٣٣	معمود دياب	(مسرحية)	● ارض لا تنبت الزهور
٣٤	عبد الفتاح الجمل	(رواية)	● الخسوف
٣٥	مخطوط عبد الرحمن	(مسرحيتان)	● ما اجهلنا
٣٦	يوسف القعيد	(قصص)	● لم يعد الضحك ممكنا
٣٧	فاروق خورشيد	(قصص)	● حبال السام
٣٨	احمد الشيخ	(قصص)	● الخنان الصيفى
٣٩	ابراهيم اصلان	(قصص)	● يوسف والردا
٤٠	يحيى عبد الله	(مسرحية)	● مسألة لبنى
٤١	يوسف ابو ريه	(قصص)	● عكس الريح
٤٢	محمد جبريل	(قصص)	● هسل
٤٣	نعمان عاشور	(مسرحية)	● غفاريات الجبابة
٤٤	عائد خصبك	(قصص)	● الطائر والنهر
٤٥	علاء الديب	(قصص)	● زهر الليمون
٤٦	امين ريان	(قصص)	● الطواحين
٤٧	سامى فريد	(رواية)	● رائحة البحر
٤٨	عاطف الفمري	(مسرحية)	● حضرة صاحب الدولة
٤٩	خيرى شلبى	(قصص)	● اسباب للكى بالنار
٥٠	بدر الديب	(قصص شمرى)	● السين والطلسم
٥١	محمد زفزاف	(قصص)	● الملاك الأبيض
٥٢	عبد الحكيم قاسم	(قصص)	● ايام الانسان السبعة
٥٣	محمد البساطى	(رواية)	● هذا ما كان
٥٤	جبرا ابراهيم جبرا	(رواية)	● القرب الأخرى
٥٥	طلعت فهمى	(قصص)	● أغنية حب حزينه
٥٦	إبيع الصبروت	(قصص)	● انكسار الحروف
٥٧	عبد الوهاب الاسوانى	(رواية)	● اخبار الدراويش
٥٨	فتحي عبد الفتاح	(قصص)	● النيل والغضب
٥٩	نهاد شريف	(رواية)	● الثنى

٦٠	نعيم عطية	(قصص)	● نورسان ابيضان
٦١	عبد العزيز مشري	(رواية)	● الفيوم ومنابت الشجر
٦٢	فؤاد التكرلى	(مسرحيات)	● الصخرة والظوف
٦٣	سعيد الكفراوى	(قصص)	● ستر العورة
٦٤	محمد سليمان	(قصص)	● الوجه الآخر للقر
٦٥	محمد المخزنجى	(قصص)	● سفر

العدد القادم :

سليمان الشطى	(قصص)	● رجال من الرف العالى
--------------	---------	-----------------------

فى اعدادنا القادمة

علي خيون	(قصص)	● عيون الحب
رضوى هاشور	(قصص)	● رايت النخل
حسنه المصباحى	(قصص)	● السلطنة
بدر الديب	(تجربة فى الديالكتيك)	● المستحيل والقيمة
توليق الحكيم	(مسرحية)	● النعيم العائم
اسماعيل العادلى	(قصص)	● مؤامرة البحر
ادوار الطراى	(قصص)	● ساعات الكبرياء
سامى فريد	(قصص)	● تلك الآليه
محمود جندارى	(قصص)	● احتمالات

الأعداد الممتازة القادمة

طه حسين	(رواية)	● المذبذبون فى الأرض
د. مصطفى مشرفة	(رواية)	● لحظة التى كفر
ابراهيم عبد القادر المازنى	(رواية)	● خيوط العنكبوت
ابراهيم عبد القادر المازنى	(رواية)	● ابراهيم الثانى
يوسف السباعى	(رواية)	● نائب عزرائيل

- فساد الأمكنة (رواية) صبرى موسى
- قصص مختارة (قصص) يوسف ادريس
- الجبل (رواية) فتحي غانم
- قصص مختارة (قصص) يوسف التشاروني
- أغنية الرياح الأربع (دراما شعرية) عل محمود طه
- بعرة المساء (قصص) ابراهيم اصلان

تطلب كتب هذه السلسلة من

- باعة الصحف ● مكتبات الهيئة
- المعارض الدائم للكتاب
- معارض الكتاب بداخل مصر والخارج
- مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧٢١ / ١٩٨٩

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢٢٥٩ - ٩

هذه مجموعة من القصص ، تقدم كلها تنويعات على تجربة الغربة والاكتشاف .
وهي تجربة تملأ ان تكون كتابتها شعرا او مثل الشعر ، والعلاقة بين القصة وبين
القصيدة علاقة مشهورة منذ قديم . ولكن محمد المخزنجي واحد ممن يفتحون لنا
اكتشاف ابعاد جديدة لهذه العلاقة الفريدة ، ليس فقط بين القصة والقصيدة ، ولكن
ايضا بين تجربة الغربة والاكتشاف وبين الشاعرية او الشعر . في تجربة الغربة
اكتشاف ضروري . واكتشاف آخر لا يحققه غير الشاعر حين يغترب . الضروري هو
اكتشاف العالم (المكان والناس) الذي فرض الغربة واحتواها . اما اكتشاف
الشاعر فهو إعادة ادراكه لذاته وللوطن الذي اغترب منه ، وللطريق الذي سار فيه
رحلة غربته وعودته ، ولكنوز معرفته الجديدة بكل مكوناتها : ذاته ، والموضوعات
الآخري . إننا نتلقى في هذه الكتابة — هنا في هذه المجموعة — نموذجا فريدا من
العلاقة بين مدركات الحواس وبين معطيات الوجدان وذكريات الذهن واسلوب
التفكير : علاقة تحولها هذه الكتابة بالذات إلى وجود ، لم يوجد قبل ان يكتب ، ولم
يكن يمكن وجوده لولا هذه الكتابة : لولا إقامة هذه العلاقة الرباعية الاطراف ،
الفريدة ، وكتاباتها . وهو وجود ، فوق انه لا يحاكى ، الواقع ، فإنه لا يسعى إلى ان
يواريه ، بل هو يغرق في ، الواقع ، لكي يخرج بمعرفته لا بصورته . ثم لا ييوح
بالمعرفة ، وإنما ينشد القصيدة نشوان بما عرف . فهل يرجع هذا التفرد إلى نوع
شاعرية المخزنجي ، أم إلى نوع شاعرية التجربة ، أم إليهما معا ؟



شبكة ليلاس

الثقافية

** معرفتي **